من أسرار التقديم فى الذكر الحكيم

الدكتور
محمد الأمين الخضرى

آثرت أن تكون دراستى للتقديم فى نظم القرآن الكريم محصورة فى ذلك النوع من النظم الذى لاتحكم ترتيب ألفاظه قواعد النحاة، ولا يترتب على مخالفة نظمه إخلال بدلالات الألفاظ على المعانى ، أو نتوء فى نسيج العبارة وتلاحم أجزائها فالتقديم - كما قال ابن الأثير - ضربان الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعانى، ولو أخر المقدم ، أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى(١) .

فالضرب الثانى هو مجال دراستنا ، وأعنى به ماجاء من الألفاظ أو الجمل منسوقا بواو العطف ، وهى على ماقرره جمهور النحاة لا تقتضى ترتيبا ، ولاتدل على غير مطلق الجمع، ومن ثم فإن البحث فى أسباب التقديم والتأخير معها لا يعتمد على غير الحس المرهف فى إدراك الدواعى والأغراض ، والتسمع فى حذر إلى مايشى به السياق ، والفطنة فى إدراك ماتهمس به القرائن .

هذا النوع من التقديم بما يتطلبه من الاستجابة لأحوال المخاطبين ، والوفاء بأغراض المتكلم ومراميه ، هو المجال الأمثل لإبراز التفاوت بين أسلوب وأسلوب ، وتفوق نظم على نظم . وللقرآن فيه من الافتنان والإبداع ما يشهد على إعجازه .

والسابقون لهم فى مجال الدراسة محاولات جاده . وجهود مشكورة ، بعضها منثور فى كتب المفسرين ، وفى طليعتها كشاف الزمخشرى ، وبعضها مباحث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى كتب عالجت أسباب التقديم والتأخير معتمده على أساليب الذكر الحكيم، كما فى « نتائج الفكر » وللسهيلى ، و « المثل السائر لابن الأثير » ، و « الطراز » للعلوى ، و « معترك الأقران » للسيوطى ، وبعضها فى كتب عنيت بالمتشابه من آيات القرآن ، وفى مقدمتها « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الإسكافى .

وقد حاول بعض هؤلاء الأعلام أن يضعوا ضوابط لتقديم بعض المعطوفات على بعض حتى يأتى ترتيب الألفاظ فى الذكر مواكبا للحركة الذهنية ، والانفعالات النفسية ، ضمانا لحسن التواصل وسرعة الاستجابة بين المنشىء والمتلقى ، وللسهيلى فى ذلك كلام طيب يقول فيه : (ما تقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقديم المعانى فى الجنان ، والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء ، إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة ، أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على المعنى السابق ، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك)[٢] .

غير أن هذه الأسباب الخمسة أو العشرة كما وصلت عند السيوطى فى « معترك الأقران » لم تكن كافية فى تفسير الكثير من مواطن التقديم والتأخير فى الكتاب العزيز مما يخالف ترتيبه ظاهر هذه الأصول ، وهو - فيما أرى - آية الإعجاز فى الذكر الحكيم .

الإنس والجن :

من هذه الضوابط أن يقدم الأفضل إلماحا إلى شرفه ، وتذكيرا بفضله ، وقد عد السيوطى من ذلك (تقديم الإنس على الجن حيث ذكرا فى القرآن)[٣] .

ولعل السيوطى رحمه الله يعنى أن ما جاء فى القرآن مقدما فيه الإنس ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإن التقديم فيه للتشريف وإلا فإن هناك كثيرا من الآيات تقدم فيها الجن على الإنس ، وقد أحصيت من ذلك تسعة مواضع ذكر فيها الجن مقدما ، مقابلة بثمانية مواضع تقدم فيها الإنس ، ولكل موضع أسراره ودواعيه فحيث يكون الحديث عن الغواية والإضلال ، والتمرد على الله والاجتراء على سلطانه فإن الجن أحق بالسبق ، وأجدر بأن يتقدموا الصفوف . نلمس ذلك واضحا في قوله تعالى : « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان »(٤) . فالجن هم الذين يتخيل فيهم القدرة على النفاذ ، ويتصور منهم استطاعة الهرب ، بما ميزهم الله عن الإنس من قدرات عجيبة ، أمكنهم أن يصلوا بها إلى السماء الدنيا في محاولة لاستراق السمع قبل مبعث النبي عليه السلام ، وهم بذلك أخرى أن يكونوا أول من يواجه بالتحدي ، وأن يوضعوا في مقدمة من يعجزهم الله بقدرته وعظيم سلطانه .

وحين يكون مجال التحدي فيما يتفوق فيه الإنسان ، ويتفق مع مواهبه وقدراته يقدم الإنس بحسبانهم المقصودين أساسا بالتحدي ، كما في قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٥) .

حيث المتحدى به كلام من جنس ماينطق به الإنسان ، وبيان من لغة قوم من الإنس هم أرباب الفصاحة والبيان ، فناسب أن يقدم الإنس ، لأنهم أصحاب هذه الموهبة ، والمظنون بهم القدرة على خوض غمار هذا التحدي ، وذلك لأكشف عنه الرازي في تفسيره لآية الرحمن ، فقال : (ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس هنا ، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » . تقول : النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن ألبق إن أمكن ، والاتيان بمثل

القرآن بالإنس أليق إن أمكن ، فقدم فى كل موضع من يظن به القدرة على ذلك (٦) .

ولنفس الغرض قدم الجن فى قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون »(٧) لأن الأظهر فى الدلالة على عظمة ملك سليمان ، وماوهبه الله من النفوذ وللسلطان هو تسخير الجن له ، يخضعون لأمره ، وينخرطون فى سلك اتباعه وجنوده ، فكان تقديمهم على الإنس أدعى للدلالة على هذا الغرض .

وكم يروعنا سر الإعجاز القرآنى حين تقرأ ماجاء على لسان الجن أنفسهم مقدمين ذكر الإنس فيما حكاه القرآن عنهم : « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا »(٨) . إن الكذب والاجتراء على الله تعالى أليق بطبائع الجن ، غير أن تقديم الإنس جاء تصويرا لدهشتهم حين استمعوا إلى القرآن ، وأخذوا بجلاله ، وسرت روح الصدق واليقين فى أوصالهم ، فصرخوا متعجبين : كيف يجرؤ المخلوق على خالقه ، وتفترى الصنعة الكذب على صانعها : ولأن بحدث ذلك من الإنسان أعجب وأغرب ، فهو الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، فكيف يقابل الإحسان بالإساءة ؟ ولم يرد على تكريم الله له بالتطاول عليه ؟ أن تقديم الإنس جاء بمثابة استنكار شديد لوقوع ذلك منهم ، حيث كان المتوقع أن لا يشاركوا الجن فى هذا الجرم .

وفى معرض الحديث عن الغواية والإضلال والوسوسة فى الصدور بالشرور والآثام ، يتقدم الجن على الإنس ، كما نجده فى قوله جل شأنه : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » لما كان الجن هم الأقدر على النفاذ إلى نفوس البشر ، وتزيين الشر فى أعينهم ، وكان الإنس فى ذلك اتباعا لهم وأذنابا ، وجب تقديم الجن ، كما يتقدم المتبوع على تابعه .

وربما يلبس علينا تقديم الإنس فى موضع شبيه بهذا الموضع ، هو قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا »(١٠) .

ولكننا حين نمعن النظر يستبين لنا فرق ما بين الموضعين . فشيطان الجن لا سلطان له على أنبياء الله ، فهم معصومون من التأثر به ، وغاية مايصنعه من الكيد لهم أن يوسوس لإخوانه من شياطين الانس ، ينفث فى صدورهم ويؤلبهم عليهم ، ويدفعهم إلى حربهم والوقوف فى سبيل دعوتهم ، لذلك تقدم الانس باعتبارهم مظهر الشر والايذاء فى مواجهة النبيين ، وقد روى عن مالك بن دينار قوله : إن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجن ، لأنى إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى ، وشيطان الانس يجيئنى ، فيجرنى إلى المعاصى عيانا(١١) .

إن هناك فرقا بين محاولات الشياطين إغواء الصالحين من عباد الله ، ومحاولاتهم مع من لديهم استعداد للضلال وقبول للغواية ، الأولى لا أثر لها ولا خطر منها تحقيقا لقوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » ، والثانية قوله الأثر ، شديدة الخطر ، كما ينطق به عجز الآية « إلا من اتبعك من الغاوين » . وقد تجاوب نظم القرآن مع الحالين ، فقدم الانس حين كان الاغواء فى مواجهة الصالحين ، مشعرا بخطرهم فى محاربة دعوات الاصلاح ، والوقوف فى وجه المصلحين ، وقدم الجن حين كانت الغواية لذوى الفطرة المنتكسة ، والأنفس النزاعة إلى الهوى والرذيلة ، حيث يكمن الخطر فى وسوسة شياطين الجن أصالة ، ثم فى أوليائهم من الانس تبعا . يتضح ذلك فى قول الغاوين يوم القيامة : « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »(١٢) مقدمين من هم أعرق فى الغواية وأوغل فى الاضلال ، وقدمهم الله كذلك فى بيان مصيرهم المحتوم « وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا

خاسرين ،(١٣) وثمة موضع يدق فيه النظر ، ويحتاج إلى كثير من التأمل لادراك سر التقديم فيه وهو قوله تعالى : «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون»(١٤) فالشأن أن الطاعة والعبادة فى عالم الإنس أظهر ، وهم بها أحق وأجدر ، ومع ذلك تقدم الجن على الإنس ، إلا أن المتتبع للسياق ، والمنقب عن أغراض النظم يدرك أن الآية مسوقة لبيان عظمة الخالق ، واستغنائه عن خلقه ، وتقرير أنه لا تنفع له طاعة ، ولا ضرر يلحقه من معصية ، فإذا كانت الغاية من خلق الجن وهم المعروفون بالتمرد والعصيان هى العبادة ، وإذا كان الجن بما يعلمه الإنسان ويتخيله عنهم من قدرات عجيبة هم مفتقرين إلى الله تعالى فى معاشهم واستمرار وجودهم ، فما أجرى أن يكون البشر مقهورين بسلطان الله ، مفتقرين إلى رحمته ، متوجهين إليه بالعبادة التى خلقوا من أجلها ؟ يقول العلوى : (إنما قدم الجن ههنا لما كان المقام مقام خطاب بامتثال الأوامر فى العبادة فى قوله تعالى : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» فقدمهم لما كانت المخالفة منهم فى العبادة أكثر من الإنس(١٥) .

وفى مقام تعديد نعم الله على الإنسان وما سخر له فى السماء والأرض قدم حديث خلقه عن خلق الجان مع أن الإنسان مسبوق فى بدء خلقه ، وهذا ما جاء فى سورة الرحمن ، حيث بدأت بتعـــديد نعم الله على الإنسان : «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» ثم انتقلت إلى الحديث عن منشأ الإنس والجن «خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار»(١٦) فقدمت خلق الإنسان ، لأن الحديث فيه ، وهو المقصود أصالة والمتعلق بالقرآن ابتداء . ولنفس السبب تقدم خلق الإنسان فى سورة الحجر ، حيث بدأت كما بدأت سورة الرحمن بالحديث عن نعمة القرآن «الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» ثم استمرت فى تعديد نعم الله على الناس «ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين »(١٧) . ثم وصلت بذلك الحديث عن خلق الإنس والجن « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم »(١٨) .

فتقدم الإنس باعتبارهم المقصودين بالحديث أصالة ، والمخاطبين بالقرآن ابتداء دون التفات إلى سبق الجن فى الوجود ، التقاء بالإشارة إليه فى قوله « من قبل » ودون اعتبار لشرف المادة التى خلق الجن منها ، تعويلا على أن الشرف والفضل فى الطاعة والعمل الصالح .

وقد تغير ترتيب النظم حين جاء الحديث عقب ذلك على لسان إبليس ليبرز مفهوم إبليس ورؤيته لمقاييس الفضل والتقدم ، وهى عنده تكمن فى شرف العنصر ، وسمو المنبت ، فقال فيما حكاه القرآن على لسان إبليس مبررا إباءه عن السجود لآدم : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين)(١٩) فقدم خلقه على خلق آدم تأكيد الدعواه الفضل عليه بشرف المادة التى خلق منها .

السماء والأرض :

من المواضع التى خفى أمر التقديم والتأخير فيها تقديم السماء على الأرض تارة ، وتقديم الأرض تارة أخرى . ولما كان تقديم السماء هو الغالب فى الذكر الحكيم اعتبره المفسرون والبلاغيون أصلا فى التقديم ، لما أن السماء أعظم خلقا ، وأدل على قدرة خالقها .

وفى محاولة لاستقصاء المواطن التى جمع فيها القرآن بين السماء والأرض فى صورة عطف بالواو وجدت أنها تجاوزت المائتين ، وليس من بين هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المواضع ما تقدمت فيه الأرض سوى إثنى عشر موضعا ، وهى حقيقة تؤكد كون السماء هى الأصل فى التقديم ، وقدوجدت لبعض هذه المواضع تعليلا عند المفسرين والمشتغلين بالدراسات القرآنية ، وبذلت جهدى فى استكشاف أسرار بعضها الآخر مما لم أجد له عند أحد تفسيرا .

١ — قال تعالى فى سورة يونس : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »(٢٠) .

وقد لفت تقديم الأرض فى هذه الآية أنظار المفسرين والباحثين ، نظرا لأنها تشتبه فى نظمها مع آية أخرى ، وتختلف معها فى تقـــديم الأرض على السماء ، وهى قوله تعالى من سورة سبأ : « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »(٢١) .

تعرض الخطيب الإسكافى لبيان سر التقديم والتأخير فى الآيتين فقال : (إنما قدم ذكر السموات على الأرض فى سورة سبأ ، لأن هذه الآيه مبنية على مفتتح السورة « وهو » الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الأخرة » فقدم ذكر السموات ، لأن ملكها أعظم شأنا ، وأكبر سلطانا ، وكذلك الآية التى بعدها فى سورتها ، وأما التى فى سورة يونس فإنها جاءت عقب قوله « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر ، وذلك فى الأرض ، فأتمه بقوله « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض » واستوعب جميع مافى الأرض ، ثم أتبعه ذكر السماء ، لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها ، وما يعمل العباد فيها ، فلذلك قدمت الأرض عليها(٢٢) .

وهذا كلام جيد وفهم دقيق لخصائص النظم القرآنى ، وما يمتاز به من تآخى مفرداته وجمله ، واستدعاء مطالعه لمقاطعه ، ولعل زيادة « من » فى آية يونس فى قوله « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة » وحذفها من آية سبأ دليل على هذا الانسجام والتناسب الذى يمتاز به أسلوب القرآن الكريم فتأمل معى أثر التناسق بين الجمل الثلاث « وما تتلو منه من قرآن » « ولا تعملون من عمل » « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة » وحاول أن تسقط من الجملة الأخيرة حرف الجر كما سقط من آية يونس ، وحينئذ ستجد أثر ذلك عثرة فى أذنك من جراء فقد التوازن الموسيقى وفقدان التناسب فيما تؤديه « من » تأكيد العموم فى إحاطة علمه تعالى بشئون خلقه وشهادته على كل ما تتحرك به جوارحهم ويدور فى خواطرهم .

٢ — وشبيه بهذه الآية قوله تعالى على لسان إبراهيم . « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء »(٢٣) فقد جاءت هذه الآية فى دعاء إبراهيم وهو يودع ابنه وزوجه فى صحراء مكة ويستودعهما ربه « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » فكان جواب الله له « وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » بمثابة يد حانية تربت على كتف إبراهيم ، تهدىء من روعه وتطمئنه أنهما فى رعاية من لا تخفى عليه خافية فى الأرض التى انبعث منها هذا النداء ، ولا فيما هو أعظم ملكا وأعظم سلطانا من الأرض وهى السماء . فتقدمت الأرض لأنها هى التى خرج منها هذا الدعاء ولمن فيها كان الجواب .

٣ — أما قوله تعالى فى سورة آل عمران : « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »(٢٤) فقد جاء بمثابة تهديد للكافرين ممن قابلوا وحى الله ورسله بالإعراض ، وألبسوا الحق بالباطل ، فاتبعوا ما تشابه من آيات

ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فتضح بهذه الآية مكنون صدورهم ، ولوح لهم بسيف العقاب الذى ينتظرهم جزاء كفرهم ، وقد سبق هذه الآية قوله إن الذين كفروا لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ، فناسب أنه تقدم الأرض وهى موطن الضالين ممن تهددهم الآية بشديد العقاب .

يقول الآلوسى تعليلا لتقديم الأرض فى هذه الآية : (وتقديم الأرض على السماء إظهارا للاعتناء بشأن أحوالها ، واهتماما بما يشير إلى وعيد ذوى الضلالة منهم ، وليكون ذكر السماء من باب العروج)(٢٥) .

٤ — « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم »(٢٦) .

الآيات دعوة إلى عبادة الله ، وبيان لموجبات العبادة من النعم التى أسبغها الله على من تعبدهم ، وقد رتبت هذه النعم حسب سبغها فى الوصول إلى الإنسان وأولها خلقه سويا يستمتع بما أمده الله من فضله ، وثانيها تلك الأرض التى مهدها الله وهيأها لتكون مفترشا له ومنقلبا ، وثالثها سماء تظله ، وهو أشبه بسقف بيت ، والسقف قال للبناء على الأرض ، ومن ثم قدمت الأرض ، لأنها أول ما تقع عليه عين الإنسان من نعم خالقه .

ورحم الله الزمخشرى فقد أتى بما لا نزيد عليه ، قال : (قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولا ، لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدمتها ، والسبب فى التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التى هى مكانهم ومستقرهم الذى لابد لهم منه ، وهى بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التى هى كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار)(٢٧) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى هذه الآيات دعوة إلى التأمل والتفكير فى آثار الخالق وصولا إلى الإيمان بالخالق ، وتوجيه لأنظار الناس - وخاصة العرب الذين كانوا أول من تلق القرآن - إلى مابين أيديهم من الإبل التى هى قوام الحياة فى البادية ، وهى خلق من الأحياء عجيب ، فى قدرتها على النهوض بالأثقال على ، وحملها إلى بلاد لايبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس ، وصبرها على العطش أياما طوالا وهى مع قوتها مسخرة منقادة ، لا تستعصى على الضعيف ، ولا تمانع الصغير ، فكان البدء بها بدءاً بأقرب شىء إلى نظر العربى من عالم الأحياء ، ثم وجه نظارهم إلى قدرة الله فى خلق الجمادات بادئا بما هو أعظم خلقاء وأول على قـــدرة الخالق - وهى السماء التى رفعت بغير عمد يرونها ما يمسكها إلا الله ، ثم ترتد أبصارهم إلى العالم السفلى فيكون أول ما تقع عليه منه تلك الجبال الشم المنصوبة على الأرض أوتادا حتى لاتميد بما كنيها ، ثم يستقرون بأبصارهم على الأرض ، فيرون كيف بسطاها وهيأها موطنا لسكناهم ، ومتاعا لهم ولأنعامهم .

فالترتيب هنا جاء مواكبا لسبحات الفكر ، وخطرات النفس ، وحركت البصر فى تقلبه بين المشاهدات من آثار خلق الله .

٥ - وتقدم ذكر الأرض فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر »(٢٩) حيث تصـــور الآية نهاية الطوفان فى قصة نوح عليه السلام ، على حين تقدمت السماء فى تصوير الله بداية هذا الطوفان « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر »(٣٠) .

وفى تعليل تقديم الأرض فى الآية الأولى يقول صاحب المنار : (ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل ، نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها ، حيث فار تنورها أولا)(٣١) .

وهذا التعليل مما لا يستريح إليه ضمير الباحث ، إذ أن دعوى ابتداء الطوفان من الأرض يرده وصف الله تعالى لبداية هذا الطوفان فى سورة القمر « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا » ، ولما كانت السماء هى الأصل فى نزول الماء ، والمصدر المعتاد لإمداد الأرض وأهلها بما يستقوت أو إنزاله سيولا تدمر من يشاء من خلقه كما تصوره الآية الكريمة (فأرسلنا عليهم سيل العرم » ، وجب بمقتضى البلاغة أن تقدم السماء ، وكما كانت بداية الطوفان دليلا على عظمة القدرة الإلهية فى تحويل الأرض إلى محيط متلاطم الأمواج فى أقل من طرفة عين ، أظهر الله نفس القدرة فى إخفاء هذا الطوفان بمثل ماظهر به ، ولكى تظهر استجابة الأرض والسماء فى تنفيذ أمر الله توجه النداء من الله للأرض أولا أن تبتلع ماءها ، ولم يصدر إليها الأمر بالكف عن تفجير الماء ، لأن الكف وحده يعنى بقاء ماعليها من الماء ، وذلك لا يحقق الغرض من إزالة كل أثر للطوفان على وجه الأرض ، ثم جاء بعد ذلك نداء السماء ، وأمرها بأن فكف عن إرسال مائها ، حتى لا تعوض السماء ماء تبتلعه الأرض . ومن المعلوم المشاهد فى حياة الناس أن المدن التى تعرض لنزول الأمطار ويكون لديها منافذ لديها منافذ صناعية لابتلاع الماء لا تتوقف فيها الحياة ، مهما كانت الأمطار غزيرة ، بخلاف غيرها مما ليست لديها هذه المنافذ ، فإن قليلا من الأمطار يعوق الحياة فيها ، ومن ثم كان تقديم السماء فى بدء الطوفان هو الأهم . ولو عكس الترتيب وأمرت السماء أو بالإقلاع لظل خطر التدمير قائما ، خاصة بعد أن وصل الماء إلى المستوى الذى اختفت معه الجبال ، ، وهذا يفسر سر اختيار « ابلعى » فى أمر الأرض و « أقلعى » فى أمر السماء وهو وحده كاف فى الإبانة عن الفرق بين أثر النداءين .

٦ - ومما تقدم فيه ذكر الأرض قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير »[٢٢] .

الخطاب فى الآية لقوم إبراهيم حين تمردوا على الله تعالى وصدوا عن

دعوته ، وحاربوا نبيه ، فتهددهم الله بالانتقام ، وتوعدهم بعدم الإفلات من عقابه حيث لامهرب لهم فى ولا فى السماء ، ولما كان المهرب المتاح والممكن أمامهم هو الأرض ، إن كان ثمة هرب ، إذ لاقدرة لهم على صعود السماء والهرب فيها ، قدمت الأرض ، وجاء عطف السماء فيها زيادة فى التعجيز .

ولعل فى الآية نوعا آخر مما نطلق عليه الإعجاز العلمى مما تلمح إليه من أن الإنسان فى مرحلة من العصور سوف يتجاوز بإمكاناته العلمية نطاق الأرض ، فلا يظنن حينئذ أنه سيعجز الله هربا من عقابه فيما تجاور عالم الأرض .

٧ - قال تعالى فى سورة الحديد : « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها »(٣٣) .

٧ - وقال فى سورة سبأ : « الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من وما يعرج فيها »(٣٤) .

قدم الإخبار مايلج فى الأرض وما يخرج منها على علمه بما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، فى الموضعين ، ولذلك وجهان من البلاغة : أولهما يقتضيه تناسبه النظم ، والثانى يستدعيه ترتيب الألفاظ على وفق مشاهدات المخاطبين ، فما يقتضيه تناسب النظم أن كلا الموضعين سبق بذكر السموات والأرض ، فجاء البدء بأحوال الأرض الحديث عنها متصلا . إذ هى آخر ماذكر ، على طريقة قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين أسودت وجوههم ... »(٣٥) فنبدأ بتفصيل ماذكر آخر ليقربه جزاءه ، وهو نهج مسلوك وطريقة معهودة فى بيان العرب . والوجه الثانى الذى يقتضيه ترتيب الألفاظ وفقا لترتيب الأحداث هو ماأشار إليه الرازى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقوله : « ثم ما يلج فى الأرض على ما ينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولا ، ثم تسقى ثانيا »(٣٦) .

٩ ـ قال تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات »(٣٧) .

١٠ ـ وقال جل شأنه : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية »(٣٨) .

١١ ـ وقال عز ذكره : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه »(٣٩) .

تقدمت الأرض فى المواطن الثلاثة حيث كان الغرض هو الكشف عن عجائب القدرة الإلهية فى تغيير معالم الكون يوم القيامة على غير ما اعتاد الناس رؤيته عليه ، بعد أن ظن الكافرون أنه عالم ثابت لا يمتد إليه الفناء « نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . هذه الطبيعة المتمثلة فى الأرض بشموخها وثباتها ، وفى السماء بعظمتها واتساع ملكوتها ، والتى حسبها الكفار مصدر الخلود الذى يفنى أجيال الناس ولا يفنى ، سيهدمها الله تعالى ليبنى غيرها دليلا على عظيم قدرته ، ولما كان ذلك من عجائب القدرة قدمت الأرض التى هى مستقر المخاطبين وهم أعرف بها ، لأن تغيير ما علمه الإنسان واعتاد رؤيته أدعى للعجب وأدهش ، وأدل على القدرة من تغيير ما جهله وغاب عنه ، ولا تزال عوالم السماء مجهولة للإنسان مهما بدا أنه صار قريبا منها ، لذلك قدمت الأرض على السماء باعتبار أن تبديلها أقوى أثرا فى نفوس من يحيون عليها ويحفظون أدق معالمها ، يضاف إلى ذلك أن الحديث عن تبديل الأرض والسماء فى الموضعين الأولين جاء عقب الحديث عن الأمم التى أهلكها الله وترك وترك آثارها شاهدة عليها ، مساكنهم التى خلفهم عليها من خاطبهم القرآن ،

ليدفع الوهم بأن الأرض باقية خالدة تبتلع من عليها وتبقى ثابتة تتحدى الزمن «وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم»(٤٠) «وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية»(٤١). فما أجدر أن تقدم الأرض والمناسبة فيها.

١٢ - قال تعالى: «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى»(٤٢).

تأخر ذكر السموات ليتسنى وصفها بما يكشف عن عظمتها وليتصل بها حديث الله عن العرش واستوائه عليه، ثم إن تقديم الأرض يتناسب مع نفى الشقاء عن الرسول عليه السلام والأرض هى موطن الشقاء هذا إلى جانب ما يحدثه وصف السموات بالعلى من تناسق الفواصل، وهو لون من الأداء الفنى الأخاذ فى موسيقا القرآن.

العقم والكبر:

من حسن أدب المتكلم ولياقة حديثه أن يقدم ما يراه قصورا فى نفسه على قصور الآخرين، هضماً للنفس وتقديراً لمشاعر الغير، من ذلك ما جاء على لسان زكريا عليه السلام متعجبا من بشرى الملائكة له بيحيى فى سورة آل عمران «قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر»(٤٣). فقدم كبره وهو قصور فى نفسه رآه مانعا من الإنجاب فى العادة - على عقم امرأته، مع أن العقم أهم، باعتباه المانع الأصيل الذى يستحيل معه الإنجاب فيما اعتاده الناس، أما الكبر فلا يستبعد الإنجاب معه، فجاء هذا التقديم دليلا على كمال

... و حسن التخاطب ، مراعاة لمشاعر امرأته ، وتحاشيا مع إيذائها لو قدم ... هو مانع من الإنجاب فيها ، فقدم قصور حاله على قصور حال امرأته ، وهو ... ما فعلته سارة عليها السلام حين بشرت بإسحاق فقالت : « يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب »(٤٤) . مقدمة ما هو قصور ... فيها على ما في زوجها من الكبر ، تأدبا ورعاية لمشاعر زوجها .

أما ما جاء في سورة مريم على لسان زكريا مقدما فيه حال امرأته على حاله، فذلك موضع له أسبابه ودواعيه ، حيث جاء قوله في تلك السورة : « قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا »(٤٥) ، جاء عقب دعاء زكريا وقد أبان فيه عن حاله ، وما آل إليه من ضعف البنية ، وعوارض الشيخوخة ، وخوفه من ضياع ميراث النبوة « قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا »(٤٦) . فلما بشر بيحيى قدم حال امرأته لأن حاله كان معلوما مما سبق ، وأعاده بعد ذكر حال امرأته بصورة أبلغ ، مشيرا إلى أنه بلغ من الكبر حدا لا يرجى معه إنجاب. فكأنما توسطت علة امرأته ما يشبه العلتين عنده ، ضعف البنية وبلوغه من السن حد اليأس من الإنجاب.

وأحسب أننى فيما قلت لا أذهب بعيدا عما قاله الإمام أبو السعود فى عبارة بليغة موجزة ، قال تعليلا للتقديم والتأخير فى سورتى آل عمران ومريم : (لعل ذلك لما قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه ، وإنما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل ، وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله ، فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته ، لما أن المساعة إلى بيان قصور شأنه أنسب)(٤٧) .

الحياة والموت :

الأصل أن تتقدم الحياة على الموت باعتبار سبق الحياة فى الوجود ، وهو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماجرى عليه نظم القرآن فى معظم المواطن التى جمع فيها بين الحياة والموت ، من مثل قوله تعالى : « وهو الذى أحياكم ثم يحييكم ،(٤٨) وقوله « لا إله إلا هو يحيى ويميت ،(٤٩) . « قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .(٥٠) « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ،(٥١) « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ،(٥٢) .

غير أن هناك عدة مواطن فى القرآن جاءت بعكس هذا الترتيب ، مقدما الموت على الحياة ، وهو ما نتصدى لسره الآن .

من ذلك قوله تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ،(٥٣) .

جاء تقديم الموت متناغما مع سياق ملتهب ، فى موكب يعبر عن عظمة الله وتفرده بالخلق والإيجاد ، والقيام على شئون خلقه ضرا ونفعا ، إفناء وإبقاء ، وتحيط بهذا الموكب نذر التحدى لآلهة مصنوعة بيد البشر تعبد من دون الله ، وهى لاحول لها ولا قوة . فى هذا الجو الغاضب المشحون بالتحدى ، الملوح بالانتقام تعاون النسق القرآنى على رسم صورة تشيع فى النفس ظلالا من الرهبة ، وتجسد أمام أعينهم قدرة الله المتفردة وهيمنته الكاملة ، وتنزع من عقولهم وضمائرهم وهم الإشراك بالله . تجد ذلك فى بدء السورة بما يدل على تعاليه وقدسيته « تبارك » وفى الاكتفاء بالإنذار دون شفعة بالتبشير ، كما جاء فى آيات أخرى (بشيرا ونذيرا) وفى جعل الإنذار للعالمين وليس للناس ، ثم فى تقديم الضر على النفع (لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا) لأن العجز يبدو أكثر فى عدم القدرة على جلب الضر ، وما أكثر من يستطيعون الضرر ولا يقدرون على النفع ، ثم إلى تقديم الضر فيه تلويح ببطش الله وانتقامه ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخيرا جاء تقديم الموت على الحياة، لأنه أدل على العجز أيضا ، إذ أنه ربما يتصور ان الإماته بمعنى التخليص من الحياة أمر بمقدور غير الله أن يصنعه ، بخلاف الحياة فإن ذلك كما لم يدعه أحد لغير الله

وهكذا جاء النظم غاية فى التناسب بين مفرداته، والتآخى بين جمله كما جاء التقديم والتأخير محققا للغرض الذى يهدف إليه النص القرآنى . وقد أشار الألوسى إلى بعض هذا فقال : (وتقديم الموت لمناسبة الضر المقدم)(٥٤).

وفى جو شبيه بهذا الجو وسياق قريب من هذا السياق بدأ الله سورة الملك بقوله (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)(٥٥) .

قدم الله تعالى بين حديثه عن الخلق ما يدل على عظمته وتعاليه ، وانفرد بتدبيره ملكه وقدرته المطلقة على التصرف فيما خلق بالإعدام والإيجاد ، ولما كان الغرض من خلق الإنسان كما صرحت به الآية هو ابتلاؤه ليتبين إحسانه وإساءته ، وليحاسب على ماعمل له من خير أو شر ، قدم الموت لذلك باعتباره مقدمة الجزاء ، وتذكيرا للأحياء بنهايتهم المحتومة ، وما ينتظرهم من ثواب أو عقاب . وهو ماعبر عنه أبو حيان بقوله : (وقدم الموت لأنه أهيب فى النفوس)(٥٦) وأكده الرازى فى أحد الوجوه الأربعة التى ذكرها تعليلا لتقديم الموت وأحسبه أقربها إلى الصواب قال: (إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنذ فيما يرجع إلى الغرض أهم)(٥٧).

وقريب من هذا الغرض تقدم الموت فى قوله تعالى : (وأنه هو أمات وأحيا)(٥٨) حيث وقعت الآية فى سياق يذكر الناس بآخره يحاسبون فيها على ما قدمت أيديهم فناسب أن يقدم الموت تحقيقا لهذا الغرض وهذا هو السياق : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا)(٥٩)

هذا إلى جانب مايحرص عليه القرآن من تناسب الفواصل فيما يخدم المعنى ويضفى عليه ثوبا من الجمال الموسيقى

أما قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا)(٦٠) . وقوله (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى)(٦١) فإن تقديم الموت فيه لأنه هو رغبتهم التى يجأرون إلى الله تعالى أن يحققها لهم بوضع نهاية لعذابهم كما نطق به الآية فى قوله تعالى : (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون)(٦٢) فابدء بالموت لإفناطهم فيما هو رغبتهم الأصلية تحقيقا لزيادة آلامهم النفسية والجسدية .

الرحمة والعذاب :

عد السيوطى من التقديم للكثرة تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع فى القرآن غالباً(٦٣) .

وقد أحصيت ماورد فى القرآن على صورة عطف بالواو فوجدت خمسة مواقع تقدمت فيها الرحمة فى مقابل خمسة تقدم فيها العذاب ، وهذا دليل على أن النظم الحكيم لا تحكمه القواعد العامة ، وإنما يمشى بأسراره همس السياق ، ويسفر عنها وحى المناسبات ، فحيث يكون الغرض هو استمالة النفوس وتقوية الرجاء ، وانتزاع اليأس ، والتأكيد على لطف الله تعالى بعباده ، والتجاوز عن زلاتهم تتقدم بشائر الرحمة نذر العذاب ملوحا ببطش الله ، ومخوفا من عقابه . وثمة أسرار أخرى لا يكشف عنها سوى إحالة النظر ، وإعمال الفكر فى الوقت على أغراض الكلام ومراميه .

من ذلك تقدم العذاب على الرحمة فى قوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا

فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)(٦٤).

ربما يظن المتعجل أنه مقام يستدعى تقدم الرحمة ، ردا على ضراعة موسى ، وتعزية له عما أصابه من قومه . لكن المتأمل لأعطاف النص يدرك أن ما عليه التلاوة هو الأوفق بالمقام ، والأكثر تجاوبا مع نسق الكلام قبله ، حيث سبقه حديث عن عبادة بنى إسرائيل للعجل من دون الله ، وما صحب ذلك من غضب موسى وأسفه ، وما أعقبه من تهديد ووعيد ، إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، ولكن الله لم يقطع الرجاء عمن تاب وعمل صالحا ، فعقب الغضب بالرحمة ، والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، وتجاوب موسى فى دعائه مع هذا الموقف وما يحيط به من نذر العقاب ، ودلائل السخط والغضب ، فقدم الإضلال على الهدى وهو يفوض أمرهم إلى ربه ، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، ثم جاء رد الله على دعاء موسى مقدما فيه العذاب على الرحمة ، ليطرد نسق الكلام ، ويتناسب أوله مع آخره ، ويصل إلى الغاية المنشودة من تصوير لحظة من لحظات الغضب الإلهى على قوم غمرهم الله بنعمه ، وتجاوز كثيرا عن جرائمهم ، إنها لحظة هادرة بالسخط تزاحم فيها نذر العذاب لتستر وراءها سحائب الرحمة .

ومثل هذا الموطن ما جاء فى سورة المائدة إثر بيان حكم السرقة ، والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ،(٦٥) .

يقول الآلوسى : (كان الظاهر لحديث ، سبقت رحمتى غضبى ، تقديم المغفرة على التعذيب ، وإنما عكس هنا لأن التعذيب للمصر على السرقة ،

والمغفرة للتائب منها ، وقد قدمت السرقة فى الآية أولا ، ثم ذكرت التوبة بعدها ، بجاء اللاحق على ترتيب السابق)(٦٦) .

وتقدم العذاب كذلك حين استدعاه مقام الوعيد للكافرين من قوم إبراهيم ، حيث ذكر الله طرفا من ذكر الله طرفا من قصة إبراهيم مع قومه بدأها بقوله : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من الله أوثانا وتخلقون إفكا(٦٧) ثم عقب ذلك بقوله « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء »(٦٨) فهذا التقديم للعذاب يعكس ما عانى إبراهيم من كفر قومه وعنادهم عاجله يؤمن بأنه لا يفلح معهم غير العقاب، ولا يستحقون رحمة الله إلا إذا كانت هذه حكمته جل شأنه ، ولعلك تلاحظ معى كيف تناسق نظم الآيات ، فقدم الأرض على السماء كما قدم العذاب على الرحمة وفى كل منهما مخالفة الأصل فى الترتيب إيحاء بانتكاسة نفوس القوم وانعكاس الموازين فى مفاهيمهم ، يقول الفيروزابادى (قوله · يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، بتقديم العذاب على الرحمة فى هذه السورة فحسب ، لأن إبراهيم خاطب به نمرود وأصحابه . فإن العذاب واقع بهم فى الدنيا)(٦٩) .

وأصاب فيما قال ، غير أن قوله ، فى هذه السورة فحسب ، ينقضه تلك المواضع المتعددة والتى نستقصى ذكرها الآن .

أما قوله تعالى فى سورة المائدة « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »(٧٠) فقد جاء على لسان عيسى عليه السلام فى شأن من ادعى له الألوهية كى ينفى عن نفسه ما نسب إليه من دعوتهم إلى تأليهه وعبادته : « ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، ثم فوض أمرهم إلى الله تعالى مقدما التعذيب على الرحمة ، كى ينفى عن نفسه تهمة التواطؤ معهم ، ويظهر بصورة المنصف الذى يقف منهم موقف الحكم العادل الذى أيقن أن العدل فى تعذيبهم ، غير أنه يصادر على الله تعالى إذا اقتضت حكمته

أن يرحمهم ويتجاوز عن جريمتهم ، ولذا جاء تذييل الآية مقدما فيه «العزيز» الغالب على أمره ، فلا يعجزه إنزال العذاب بمن شاء . . و «الحكيم» الذي قد تخفى علينا حكمته في رحمة من نراه جديرا بالعذاب .

والموطن الخامس الذي تقدم فيه العذاب ، قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(٧١) .

سياق الآية في مقام التحذير من زهرة الدنيا وفتنتها ، وتشاغل الناس بها عن الآخرة ، وما فيها من عظيم الثواب وأليم العقاب ، وذلك تتطلب الإيقاظ بعنف ، وارتفاع صوت التهديد والوعيد ، تنبيها للغافلين ، وزجرا لمن ألهتهم الدنيا عن طلب الآخرة ، فكان تقديم العذاب ووصفه بالشدة هو ما استدعاه مقام الانغماس في اللهو واللعب ، والتلهي بالقليل المنقطع عن الكثير الدائم .

الظالمون والسابقون :

ومما جاء في الذكر الحكيم مخالفا قاعدة تقديم الأفضل قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)(٧٢) .

فقد تقدم الظالم وهو المفضول على المقتصد والسابق ، مما جعل الزمخشري يتصدى للكشف عن سر التقديم فقال : (فإن قلت : لم قدم الظالم ، ثم السابق ؟ قلت : للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل)(٧٣) .

راق هذا الرأي لمن جاء بعد الزمخشري ، فتردد كثيرا على ألسنة المفسرين ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورجالات البلاغة واعتبرت الكثرة أصلا يراعى فى التقديم ، فإذا تعارضت مع وجوب تقديم الأفضل فللناظم أو التالى الخيار فى تقديم أيهما شاء ، يقول ابن الأثير بعد أن علل التقديم فى الآية السابقة بالكثرة (ولو عكس القضية لكان المعنى أيضا واقعا فى موقعه ، لأنه يكون قد روعى تقديم الأفضل فالأفضل . ولتوضح لك فى هذا وأمثاله طريقا تقتفيه فنقول : (اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختصا بصفة ، فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر كهذه الآية ، فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل ، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة ، فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله)(٧٤) .

فهل يعنى هذا أن تقديم السابقة بالخيرات وتقديم الظالم سواء فى بلاغة النظم الحكيم ، أو ليس ثمة غرض تهدف إليه الآية من تأخير السابق بالخيرات ؟ لقد تكررت هذه المقولة كثيرا حتى على السنة الرواد من أساطين البلاغة ومن أفنوا أعمارهم فى استجلاء أسرار الإعجاز فى الكتاب العزيز ، فكلما استغلق على أحدهم سر التقديم فى موضع علله بأن الواو لا تقتضى ترتيبا ، فالتقديم والتأخير معها سواء ، تكرر هذا من الزمخشرى وغيره من حذقة المفسرين ، وقد سبق الدكتور محمد أبو موسى إلى رد ما قاله الزمخشرى ، كما فند دعوى ابن الأثير هذه بقوله : (ولا شك أن هذا رأى آفل ، ونظر قاصر ، وذلك لأنه تجاهل لمقتضيات الأحوال ، ومتطلبات المقامات)(٧٥) .

لقد سلك النظم الكريم فى هذه الآية نهجا آخر فى ترتيب المعطوفات غير تقديم الأفضل والأكثر ، فإن العرض الأساسى فى سياق الكلام هذا هو امتداح السابقين بالخيرات وبيان ما أعد الله لهم من حسن الجزاء ، وليس الغرض المقارنة بين الشركاء ، بدليل أنه سكت عن بيان جزاء الفريقين الآخرين ، وما قبل هذه الآية كان ثناء على من أحسنوا استقبال كتاب الله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلاوة وعملا ، وبيانا لما وعدهم الله على ذلك من الأجر الكبير ، ولا حديث عن غيرهم « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور »(٧٦) ثم جاء الحديث عن ورثة هذا الكتاب وتصنيفهم إلى ثلاثة أقسام ، بادئا بالأدنى ومنتهيا بالأعلى . على سبيل الترقى ، لتخص السابقين بما ينتظرهم عند الله من التكريم والنعيم المقيم ، « ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير »(٧٧) ومحال أن يغير ترتيب الألفاظ فى الآية من غير أن يفسد النظم وينفرط عنده الحكم ، لأنه إما أن يقرن السابقون بما أجرى الله عليهم من أوصاف ، وما أتبعهم من وعد بحسن الجزاء وحينئذ يطول الفصل بينهم وبين القسيمين الآخرين طولا فاحشا يخل ببلاغة النظم الكريم ، وإما أن يجردوا مما تبعهم من حديث فتذهب الغاية ، ويضيع الهدف من امتداحهم وبيان منزلتهم عند ربهم .

ان الترتيب على سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى الذى جاء عليه نظم الاية نهج مسلوك فى لغة العرب ، كما أن البدء بالأفضل طريق من طرقها ، ولكل موضعه ودواعيه ، وقد أشار ابن المنير إلى النهجين فقال : (وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم فقام ووجه عكس هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قوله :

بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

ولا يقال إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضى رتبة ، فإن هذا غايته أنه عذر ، وما ذكرناه بتان لما فيه من مقتضى البديع)(٧٨) .

يدل لما ذكرناه من أن هذه الكثرة ليست هى الداعى إلى التقديم أن الظالمين والمحسنين احتمعا فى صورة عطف وتأخر الظالمون . وذلك فى قوله تعالى : « وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه

مبين »(٧٩) كما اجتمع الفاسقون والمهتدون وتأخر الفاسقون مع التصريح بكثرتهم ، في قوله جل شأنه : « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون »(٨٠) .

المقام وحده هو الذي استدعى تقديم المحسنين والمهتدين في الموضعين ، وليست الكثرة أو الفضل مجال الاختلاف في الترتيب ، فلما جاءت كل منهما في موطن امتنان من الله تعالى على من ذكر من الأنبياء ، ناسب أن يقدم المهتدون والمحسنون من ذريتهم ، وجود الظالمين والفاسقين في ذريتهم ، كان لهم من سبق الصالحين ما يعوضهم عن الفاسقين ، ويغريهم عنهم ، وتقديم الفاسق والظالم يتنافى ومقام الامتنان والثناء ، ولو كان الحديث في موقف تأنيب أو توبيخ على تقصير أو مخالفة ، لاستوجب الأمر عكس هذا الترتيب بغض النظر عن الكثرة أو الفضل .

الكافر والمؤمن :

ومما استشهد به على تقديم الأكثر وتأخير الأفضل قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن »(٨١) وأحسب كذلك أن الكثرة ليست محور التقديم في الآية ، حيث إنها جاءت في معرض استغناء الله عن خلقه ، وإعلامهم بأنه ليس مفتقرا إلى عبادتهم ، إذ لا يضره كفر من كفر ، كما لا ينفعه إيمان مؤمن ، فكل ما في الكون يسبح بحمده ، ويخر ساجدا لعظمته ، « يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »(٨٢) هكذا كان البدء ، ثم تعالت نبرة التهديد والوعيد بعد هذه الآية إلى أنه قال : « فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد »(٨٣) وتوسط هذا السياق الهادر - بالوعيد والإنذار - قوله « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » بتقديم الكافر ليتناسب مع الغاية من إظهار غنى الله تعالى عن خلقه وعدم احتياجه إلى طاعة الطائعين أو تضرره من كفر الكافرين ، فمهما كثر الكافرون فأين هم من ملك في السموات والأرض يسبح بحمد الله ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس والأنعام :

قد يتعارض مع تقديم الأفضل كون المفضول سببا فيه ، فيختص كل منهما بصفة توجب له التقدم فى الذكر ، فأيهما يقدم ؟

يرى العلوى صاحب الطراز أن للناظم أو الناثر أن يقدم أيهما شاء ، وطبق ذلك على قول الله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا »(٨٤) .

يقول العلوى : (فقدم حياة الأرض لأنها سبب فى حياة الخلق ، فلأجل هذا قدمت ، لاختصاصه بهذه الفضيلة ، ثم قدم حياة الأنعام على حياة الناس ، لما فيها من المعاش للخلق ، والقوام لأحوالهم ، فراعى فى التقديم ما ذكرناه ، ولو قدم سقى الخلق على سقى الأنعام لاختصاصهم بالشرف ، وقدم سقى الأنعام على الأرض لكان له وجه ، لأن الحيوان أشرف من غيره ، فكل واحد منهما مختص بفضيلة يجوز تقديمه لأجلها ، فلأجل هذا ساغ فيه الأمران كما ترى)(٨٥) .

وأحسب أن الشرف والفضل لا مجال لاعتبارهما هنا سببا فى التقديم أو التأخير ، ولا يحسن فى الآية بوجه أن يتقدم الإنسان على الأنعام لفضله ، ذلك أن إخبار الله تعالى بأثر الماء فى إحياء الأرض بالنبات وأثره فى حياة الأنعام ليس إلا امتنانا على الإنسان بما أفاض الله عليه من مقومات وجوده . متمثلا فى النبات والأنعام ، فإليه تصير منافعهما ، وهو الغاية من إرسال الرياح وإنزال الماء وما قبله وسائل ومقدمات ، أو هى أسباب لبقائه واستمرار حياته ، ولا يحسن أن تسبق النتائج مقدماتها ، كما لا تتقدم المسببات على أسبابها .

وإذا كانت هذه الآية تحدثت عن سقى الأنعام والناس فإن ثمة آية أخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحدثت عن طعامهما من نبات الأرض الذى حي بسوق الماء ، وجاء ذكر الأنعام قبلها مقدما كذلك باعتبارها مطعوم الإنسان . قال تعالى : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون »(٨٦) تأخر الإنسان على الأنعام ، لأنه يأكل منها كما يأكل من الزرع فهى لا تأكل فى حقيقة الأمر لذاتها وإنما تأكل ليعود نفعها فى النهاية على الإنسان ، فالأنعام أثر من آثار الماء كالزرع تماما وهما ثمرة يجنيها الناس فى النهاية .

ولما تغير الغرض فى موطن آخر تغير معه ترتيب النظم ، فتقدم الإنسان على الأنعام ، وذلك فى قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس »(٨٧) .

ليس المقام مقام إمتنان من الله على الناس ، وإنما هو مقام التحذير من فتنة الدنيا وشهواتها ، ولا مجال للحديث عما سخر الله الإنسان من نبات وحيوان ، ولما كان الإنسان هو المستمتع بنبات الأرض أصالة ، والمستحوذ على أطيب الثمرات ، والمفتون بزهرة الدنيا ونعيمها لا غرو أن يقدم على الأنعام ، كما تقدم كذلك فى قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم »(٨٨) .

إذ أن تمهيد الأرض وتهيئتها للإقامة والمعاش ، وإجراء الماء والنبات فيها إنما هو ليستمتع الإنسان بخيراتها ، أما تمتع الأنعام فهو تابع لاستمتاع الانسان ، ولو علمت الأنعام أن حتفها فى متعتها هذه لما أقبلت على هذا التمتع ، فالتصريح بقوله : « متاعا لكم ولأنعامكم » يستدعى تقديم الناس لأنهم المقصودون بالاستماع ، ولذلك أفردهم الله تعالى فى كثير من آياته التى تحدثت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما سخر الله لهم فى سمائه وأرضه من مثل قوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (٨٩) .

التقديم وموسيقى الفواصل :

إذا كان القرآن شديد الأخذ ، قوى التأثير بحسن نظمه وتآخى ألفاظه ومعانيه فإنه شديد الأسر بموسيقاه وتناسق مقاطعه وتناغم قرائنه وفواصله .

إن آية الإعجاز فى كتاب الله أنه يجمع بين الجمال فى شكله ومضمونه معا ، فلا يطغى بهرج اللفظ وحلاوة التنغيم على دقة المعانى وتناسق النظام ، إنها موازنة دقيقة لا يقدر عليها إلا من أنزل الكتاب بالحق والميزان ،

وكثيرا مايقع فى القرآن تقديم لفظ على آخر ، أو استبدال لفظ بآخر ، رعاية لتناسق الفواصل ، أو تلاؤم القرائن طولا وقصرا ، إلا أن ذلك لا يكون على حساب انتظام المعانى وسلامة الفكرة ووضوحها ، كما يحدث غالبا فى نظم أرباب الأسماع من البشر ، على أن هذا التقديم والتأخير لرعاية الفواصل كثيرا مايصحبه نكتة تتعلق بالسياق ، ويستدعيها المقام وإن خفيت علينا فى بعض الأحيان .

من مواطن التقديم والتأخير لرعاية الفواصل ، مما يكاد يجمع عليه المفسرون ورجالات البلاغة ، قوله تعالى : فى سورة الأعراف « فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون »(٩٠) . وقوله فى سورة الشعراء : « فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون »(٩١) فقدم موسى فى السورتين ، ثم قال فى سورة طه « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى »(٩٢) فقدم هارون ، والحكاية واحدة ، والقائل هو نفس القائل ، ولنقرأ ماقاله المفسرون فى تعليل هذا التقديم والتأخير ، يقول الجمل نقلا عن السمين (وقدموا موسى فى الذكر على هارون ، وإن كان

هارون أسن منه اسكره فى الرتبة ، أو لأنه وقع فاصلة فنا ، ولذلك قال فى سورة طه : (رب هرون وموسى) لوقوع موسى فاصلة ، أو لكون كل طائفة منهم قالت إحدى المقالتين ، فنسب البعض إلى المجموع فى سورة : وفعل بعض آخر إلى المجموع فى أخرى)(٩٣) .

ولا يستقيم لنا من التعليلات الثلاثة إلا رعاية القواصل ، إذ أن كبر موسى فى الرتبة لا يستدعى تقديمه فى سورة طه ، كما أن اختصاص سورة طه بقول طائفة قدمت هارون لا علة له إلا أن يكون لتلاؤمه مع الفواصل .

وقال الرازى معللا تقدم هارن فى آية طه : (الفائدة الأولى وهى أن فرعون ادعى الربوبية فى قوله : (ماعلمت لكم من إله غيرى) فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول إنهم آمنوا بى لا بغيرى : فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة ، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هارون على موسى لأن فرعون كان يدعى الربوبية لموسى بناء على أنه رباه فى قوله (ألم نربك فينا وليدا) فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون ، لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعا لهذا الخيال)(٩٤) .

وهذه من الرازى نكتة لطيفة ، لكن يعكر صفوها أن القوم قدموا موسى فى الموضعين الآخرين فما سر هذا الاحتراز عن التوهم الباطل فى سورة طه دون أختيها ؟

وقد استبان لى بعد طول نظر وتأمل فى سياق السور الثلاث أن سورة طه حظى فيها هارون باهتمام واضح لم يحظ به فى السورتين الأخريين . فسورة الأعراف تبدأ قصة موسى فيها بقوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه »(٩٥) دون ذكر لهارون ، ثم تمضى القصة فى حوار بين موسى وفرعون ، ويختفى هارون تماما ، حتى الملأ من قوم فرعون يفردون موسى فيقولون « إن هذا لساحر عليم »(٩٦) وفى سورة الشعراء وإن حظى

هارون فيها بحديث أكثر وأشرك فى الرسالة مع موسى ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين(٩٧) إلا أن هذا الإشراك لم يأت بصيغة تدل على استقلال هارون بالرسالة ، حيث جاء لفظ الرسول مفردا ولم يثن . مما يعطى انطباعا بأنه تابع لموسى ومعاون له ، ثم إن فرعون وملأه تجاهلوا فى خطابهم لموسى وهارون تماما ، كما نجده فى قول فرعون : « ألم نربك فينا وليدا ، إلى أن قال : « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ،(٩٨) وقول الملأ : « إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره .(٩٩) هارون إذن فى سورة الأعراف لا تكاد تسمع له ذكرا فى الحوار ، وفى سورة الشعراء لم يظهر هارون إلا فى استجابة الله لدعاء موسى أن يشرك هارون معه فى الرسالة ، ثم يختفى فى الحوار تماما ، أما فى سورة طه فإنك تحس بوجود هارون من بدء الإرسال ، وإلى ما بعد المعركة التى انتهت بإيمان السحرة ، وبنكيل فرعون بهم ، فليس غريبا أن يتقدم هارون على موسى إظهارا للاهتمام به ، وإبراز الدورة فى مؤازرة أخيه ودليلنا من السياق على ما نقول هذا الخطاب من الله تعالى فى بدء الإرسال ، والذى يعطى فيه لهارون دورا بارزا ، ومشاركة فعالة ، « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا ربك »(١٠٠) .

فالخطاب من الله تعالى لموسى وهارون معا ، والخطاب إليه منهما معا أيضا ، ثم إن صيغة الإرسال جاءت بالتثنية إبرازا لدور هارون واستقلاله بالرسالة بخلافها فى سورة الشعراء .

وفى الحوار الذى دار مع فرعون نجده يخاطبهما بصيغة التثنية « قال فمن ربكما يا موسى »(١٠١) والملأ من قوم فرعون يقولون « إن هذان لساحران